

المبحث السادس عشر في أسلوب القرآن الكريم

الأسلوب في اللغة

يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة: فيقال للطريق بين الأشجار، وللفن، وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنت الأسد، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضاً، وأنسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير، أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد.

الأسلوب في الاصطلاح

تواضع المتأدبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك.

معنى أسلوب القرآن

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر، تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها.

الأسلوب غير المفردات والتراكيب

ونلفت نظرك إلى أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.

وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر أيضاً في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب في هذه الناحية، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها، وتنافسوا في حلبتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله، قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي المعجز! ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه، لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَآءِجِبِينَ وَعَجَبِينَ﴾^(١) ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آية، فقال جل ذكره في سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢) وقال في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣) وقال في سورة الزمر: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٤).

مثال لهذا الفارق

وبما أن الأمور قد اشتبه على بعض الناس حتى ضلوا فيه أو كادوا، نمثل للفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتراكيب بمثالين حيين أحدهما صناعة الخياطة، والآخر صناعة الصيدلة أو تحضير العقاقير والأدوية: فالخياطون يختلفون فيما بينهم اختلافاً بعيداً ما بين خامل ونابه في صنعه، وضعيف وبارع في حرفته. وهذا الاختلاف لم يجيء من ناحية مواد الثياب المخطية، ولا من ناحية الآلات والأدوات والطرق

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

العامة التي تستخدم في الخياطة، إنما جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اختيار هذه المواد وتأليفها واستخدام قواعد هذه الصناعة في شكلها وهندستها، وكذلك الصيادلة يختلفون فيما بينهم نباهة وخمولاً، وبراعة وقصوراً، لا من حيث مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة في تركيبها، بل من حيث حسن اختيار هذه المواد، ودقة تطبيق هذه القواعد في تحضير العقاقير والأدوية، حتى لقد نشاهد أن مزاج الجيد منها وأثره ونفعه، يختلف بوضوح عن مزاج الرديء منها وأثره وضرره، وقل مثل هذا في كل ما حولك من صناعات يختلفون فيها الصناعون ومصنوعاتهم جودة ورياءة مع اتحاد مواد الصناعة الأولى وقواعدها العامة في الجميع.

كذلكم البيان اللغوي في أية لغة، ما هو إلا صناعة، موادها وقواعدها واحدة في المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب، وإن شئت فقل: يختلف باختلاف الأذواق والمواهب التي انتقت هذه المفردات اللغوية، واصطفت تلك الجمل التركيبية، حتى إنك لترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد بوجوه مختلفة من المفردات، ومذاهب شتى من التراكيب، يتفاوت حظها من الجودة والرياءة، ومن الحسن والدمامة، ومن القبول والرد، بمقدار ما بينهم من اختلاف في طرائق اختيارهم لما اختاروه من مواد اللغة إفراداً وتركيباً، ولما لاحظوه من المناسبات مع هذا الاختيار، فإذا سلم ذوق المتكلم وسمت حاسته البيانية، حسن اختياره، وسما كلامه سموماً قد يأخذ عليك حسك، ويملك قلبك ولبك، وإذا فسد ذوق المتكلم وانحطت حاسته البيانية، ساء اختياره، ونزل كلامه، نزولاً قد تتقزز منه نفسك، ويتأذى به سمعك، وربما فررت منه وأنت تتمثل بقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أظير

بيان ذلك في اللغة العربية

بيان ذلك في لغتنا المحبوبة العربية، أن مفرداتها منها متآلف في حروفه ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كربه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة ومخالف له، ثم من هذه المفردات عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمّر، وحقيقة ومجاز.

وكذلك التراكيب العربية، منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها، وواضح المعاني ومعقدها، وموافق للقياس اللغوي والخارج عليه، ومنها الاسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفي والإثبات، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، إلى غير ذلك مما هو مفصل في علوم اللغة وكتبها.

ثم إن ما يؤيده معهود اللغة من المتنوعات المذكورة وما أشبهها، هو المسلك العام الذي ينفذ منه المتكلمون إلى أغراضهم ومقاصدهم، ولكن ليس شيء من هذه المتنوعات بالذي يحسن استعماله إطلاقاً، ولا شيء منها بالذي يسوء استعماله إطلاقاً، أي في كافة الأحوال وجميع المقامات، بل لكل مقام مقال، فما يجمل في موطن قد يقيح في موطن آخر، وما يجب في مقام قد يمتنع في مقام آخر، ولولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هيناً ولأصبح كلام الناس لوناً واحداً وطعماً واحداً، ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فخطاب الأذكياء غير خطاب الأغبياء. وموضوع العقائد التي يتحمس لها الناس غير موضوع القصص، وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التعليم الهادئ ولغة الوعد والتبشير، غير لغة الوعيد والإنذار إلى غير ذلك مما يجعل اختيار المناسبات عسيراً ضرورة أن الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين قد تكون متعسرة أو متعذرة ومما يجعل اللفظ الواحد في موضع من المواضع كأنه نجمة وضوء لامة، وفي موضع آخر كأنه نكتة سوداء مظلمة.

ولعلمائنا - أكرمهم الله - أذواق مختلفة في استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة، مكان حرف أو كلمة، ومن السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤١٢ هـ في كتابه «درة التنزيل وغرة التأويل». وهاك مثلاً منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير بالفاء في لفظ «كلوا» من قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ^(١)﴾ وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ «كلوا» أيضاً، لكن من قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ^(٢)﴾ مع أن القصة واحدة،

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦١.

ومدخول الحرف واحد قال رحمه الله: الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالإبتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء ومنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا آذِنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾^(١) فإن وجود الأكل متعلق بالدخول والدخول موصل إلى الأكل فالأكل وجوده معلق بوجوده بخلاف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾^(٢) لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالإبتداء، وجب العطف بالواو دون الفاء. اهـ.

تفاوت القوى والقدر

ولا ريب أن القوى والقدر تتفاوت تفاوتاً بعيداً فيما نعرف من الأحوال ومناسباتها، وأن ميدان الاختيار فسيح مليء بثتى الألوان والصور للمفردات ومركباتها، فماذا عسى أن تبلغ قدرة الإنسان في استعراض كل هذه الألوان والصور، وفي إقامة ميزان دقيق بينها، تمهيداً لحسن الاختيار، على ضوء تلك الأحوال المقتضية لما ينبغي أن يكون منها! هنا ينفصح المجال ثم ينفصح، فما يهتدي إليه متكلم قد يغفل عنه متكلم، وما يتيقظ له كاتب قد يغفل عنه كاتب، وما يدركه شاعر قد يفوت شاعراً آخر، بل ما يدركه الإنسان الواحد في موضع قد يخطئه في موضع سواه وهكذا.

وليس من غرضنا هنا أن نستقصي الأحوال والمناسبات، ولا أن نضرب الأمثال والشواهد لكل حال وما يناسبها، فلذلك محله من علوم اللغة وكتبها كما قلنا. ولكن الذي نريد أن تضع يدك عليه في هذا المقام، هو أن أسلوب أي كلام بليغ، معناه صورته الفنية أو طابعه الخاص، أو مزاجه الشخصي الذي تهيأ له برعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها في هذا الكلام، وأنه على حسب ما تحتوي أساليب الكلام من الأحوال والمناسبات، يتفاوت هذا الكلام في درجات البلاغة علواً ونزولاً، وفي حظه عند السامعين رداً وقبولاً، وأنه لم يظفر الوجود بكلام إلهي ولا بشري بلغ الطرف الأعلى في البلاغة؛ ووصل إلى قمة الإعجاز من هذه الناحية، غير القرآن الكريم: لأن منشأ هذا الكتاب هو وحده الذي تعلق إرادته بأن تكون معجزة نبي الإسلام من هذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦١.

الطراز لحكمة شرحناها وقد نعرض لها فيما يأتي ولأنه سبحانه هو الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده ولأنه عز سلطانه هو القادر وحده. على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه! ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وفيها الخفي الذي لا يعلمه إلا من يعلم السر وأخفى؟ ثم من ذا الذي يستطيع إن يحيط بكل أحوال الخلق؛ وهم أجيال متعددة، منهم من لم يخلقوا وقت نزول القرآن، ومنهم من لم يعرفوا لنا إلى الآن؟ بعد بضعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن، وأنت خير بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فلا غرو أن يضمه منزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم وليس ذلك في قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفيات السموات والأرض ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) ﴿ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۗ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾^(٢).

ومن شواهد ما نذكر، أننا نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر. فسبحان من أنزل هذا القرآن مشعباً لحاجات الجميع، وأمياً تجارب الجميع، فلاغاً لأذواق الجميع، متفقاً ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة، على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً.

ولعل لنا عودة لمثل هذا الكلام في فرصة أخرى، فلنمسك القلم عن الجولان في هذا الميدان، ولنرجع عوداً على بدء إلى أسلوب القرآن ولنذكر شيئاً من خصائص

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦.

(٢) سورة طه، الآيات: ٤ - ٦.

أسلوب القرآن ومزايه التي انفرد بها، وكانت هي السر في إعجازه اللغوي أو البلاغي أو الأسلوبية.

خصائص أسلوب القرآن

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، أفاض العلماء فيها بين مقلّ ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دامت أقدامهم، وحفيت أقدامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قليلاً من كثر وقطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب.

وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئاً من خصائص أسلوب القرآن، على وجه التمثيل والتقريب أيضاً.. وما لا يدرك كله لا يترك أمله.

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلافة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

١ - ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن واثلافة في حركاته وسكناته، ومداته وغماته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجبياً، واثلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع ويستهوئ النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومشور، وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية، وهي مرسله على وجه الساذجة في الهواء؛ مجردة من هكيل الحروف والكلمات، كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ الموجود، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزاً بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكنات، نقول: إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجمياً لا يعرف العربية، بأنه أمام لحن غريب

وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً وإن طالت، على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل، لأنه يتنقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب، وأعصاب الأفتدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منشور الكلام، سواء أكان مرسلأ أم مسجوعاً، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؟ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيحه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم يعرفوا شيئاً قريباً منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا، حتى قال قائلهم - وهو الوليد بن المغيرة -: وما هو بالشعر، معللاً ذلك بأنه ليس على أعاريض^(١) الشعر في رجزه^(٢) ولا في قصيده، بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ، حين زعم في ظلام العناد والحيرة أنه سحر، لأنه أخذ من الشر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية، بين إطلاق الشر وإرساله، وتقيد الشعر وأوزانه، ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منشور لكنه معجز ليس كمثله كلام، لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء، وما هو بالشعر ولا بالسحر، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه، والقرآن ليس منه؛ ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها، وإذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم، هذا إلى أن القرآن كله، ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة، لا محل فيها إلى خبث ورجس، بل هي تحارب

(١) جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضاً، وهو ميزان الشعر أو الجزء الذي في آخر النصف الأول من البيت. مختار الصحاح (م).

(٢) الرجز ضرب من الشعر وزنه (مستعملن) ست مرات. وزعم الخليل أنه ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات أو ثلاث. القاموس (م).

المحر وخبثه ورجسه، وتسمه بأنه كفر، إذ قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا وَأَيَّمُونَ
النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِأَيْلِ هُرُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (١).

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل، فليس بمعجز، ولا يمكنه ولن يمكنه
أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فلما
قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأناه فقال له: يا عم إن قومك يريدون
أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله - بكسر القاف وفتح
الباء - قال الوليد: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ
قومك أنك منكر له وكاره. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم مني
باشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا،
والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمسير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو
ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته! قال أبو جهل للوليد: لا يرضى عنك قومك حتى
تقول فيه: فقال الوليد: دعني أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره. وفي
ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ذَرَفِ وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً ۝۱۱ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ۝۱۲ وَبَيْنَ
شُهُوداً ۝۱۳ وَمَهْدَتْ لَهُ مَهِيداً ۝۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝۱۵ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانًا عِنْدَنَا ۝۱۶
سَأَرْهَقَهُ صَعُوداً ۝۱۷ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۝۱۸ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۱۹ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۝۲۱ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ۝۲۲ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝۲۳ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝۲۴ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝۲۵﴾ (٢) رواه
الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري. فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على
سجيتها العربية، وبديتها الفطرية كيف أنصف في حكمه، حين تجرد ساعة من عناده
وكفره، وقال: والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا إلى أن قال: وإنه ليحطم ما
تحته. ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته، وعاوده عناده وتعصبه، كيف قاوم
فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل
مذهب في ضلاله وحيرته، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١١ - ٢٥.

بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ (١) إلخ. نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه. آمين.

٢ - ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم. ويبان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات هنا ينقر وذاك يصفر، وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد، ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقّة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي، وذاك النظام الصوتي، أنهما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي، أن يسترعي الأسماع، ويشير الانتباه، ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢١﴾﴾ (٢).

الخاصة الثانية:

إرضاءه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرىء عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما

(١) سورة المدثر، الآية: ١٨.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرء عليهم؛ أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثلته كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلانه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أَرْضَى الخاصة والأذكياء، لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أَرْضَى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لتزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

الخاصة الثالثة:

إرضاءه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه مثلاً وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّتِي أَحْيَاهَا لَمُعِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١). وإذ قال في سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْنًرًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾^(٢)، تأمل في هذا الأسلوب البارع، الذي أقتع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في الآية الأولى: إن الذي أحياها لمحي الموتى وفي الآيات الأخيرة ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾^(٣) يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات، في هذه الكلمات المعدودات!

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلاً، كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة ق، الآيات: ٦-١١.

(٣) سورة ق، الآية: ١١.

والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك الرواية الرائعة: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١)، فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جداً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتها أمام العقل المنصف في كفتي ميزان! وهكذا تجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية!

وهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، بل كلامهم إن وفي بحق العقل بَحَسَّ العاطفة حقها، وإن وفي بحق العاطفة بخس العقل حقه، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، حتى لقد باتت العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما: أسلوب علمي وأسلوب أدبي؛ فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم، وهكذا تجد كلام العلماء والصحققين فيه من الجفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس، وتجد في كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمي ما لا يغذي الأفكار ويقنع العقول؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة، وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البدل والمناوبة، فكلام الشخص إما وليد فكرة، وإما وليد عاطفة، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور، أما أن تأتي كل جملة من جملة جامعة للغايتين معاً، فدون ذلك صعود السماء، وكيف يتسنى ذلك للإنسان، وهو لم يوهب القوتين متكافئتين، ولو تكافأتا لديه فإنه لا يستطيع أن يوجههما اتجاهاً واحداً في آن واحد متقارنتين ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (٢) أما القرآن فإنه انفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن، والذي جمع بين الروح والجسد في قران، فتبارك الله رب العالمين.

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

الخاصة الرابعة:

جودة سبك القرآن وإحكام سرده^(١)، ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجملته وآياته وسوره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده، وافتنانه وتلويحه في الموضوع الواحد، وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم، وجدت منه جسماً كاملاً تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط، ما جعلها وحدة صغيرة متآخلة الأجزاء متعاقبة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتاباً سوي الخلق حسن السمات، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ضَرِيحًا عَرَبِيًّا﴾^(٢). فكانما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المتشعبة المتفرقة، وحدة بديعة متآلفة، تربك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن، كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه، من غير تفكك ولا تخاذل، ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة، فمن تشريع إلى قصص جدل إلى وصف إلى غير ذلك، وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات، فنحيلك عليها، ونكتفي بمثل واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

هذه سورة الفاتحة، تأمل كيف تترايط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى، ومن مقصد إلى مقصد: لقد افتتحت متوجة ﴿بِاسْمِ اللَّهِ﴾ كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلاله الملك، لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور

(١) يقال: درع مسرودة ومسرودة أي منسوجة متداخلة حلقتها بعضها في بعض فالمراد هنا أن القرآن مترابط الأجزاء متناسب تناسباً قوياً (م).

(٢) سورة الزمر الآية ٢٨.

أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعاً إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال، ويوصف لفظ الجلالة بأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، ما دام أنه المستعان وحده بالدليل، ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته، في ألوهيته وربوبيته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده، ثم انتقل الكلام في براءة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده، بقريته ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣)، ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام، تنبيهاً وإغراءً على المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع في نقيض هذا المقصود ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٤). وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضال رضي أن يعيش عيشة الأنعام؛ في متاهة الجهالة والحيرة والضلال، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه، ثم تنظر في سورة البقرة، فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل، فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن، حيث جاءتنا بتفاصيل هذه الهداية، في بيان كامل، وعرض شامل.

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٤.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

أما بعد، فقد يظن بعض الجهلة، أن هذه الوحدة الفنية البيانية في القرآن، أمر تافه هين، لا يسمو إلى حد التنويه به، فضلاً عن أن ينظم في عداد ما هو مناط للإعجاز، ولأجل الرد على هؤلاء، نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة في كلام البلغاء وحملة الأقلام فإن لم يكن عندهم نظر ولا ذوق، فليستمعوا إلى حكم نقدة البيان وصيارفته عليهم، بأنهم كثيراً ما يخطئون في تنظيم أغراضهم إذا قالوا: بل يأتون بها شتياً مفككاً غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص حين يتقلون من غرض إلى غرض في القصيدة الواحدة وما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافي هذا النقص، بما يستخدمون في تنقلاتهم بين أغراضهم، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنونة ولفظ أما بعد نحو: هذا، وإن، ألا، وإن قلنا كذا ونقول كذا، ينقسم الكتاب إلى مباحث: المبحث الأول في كذا إلخ، ينقسم هذا البحث إلى نقاط أولها كذا إلخ. ملاحظة. تنبيه: فذلكة. أما بعد إلخ.

هذا في كلام البشر، أما كلام مالك القوى والقدر، فإنه على تنوع أغراضه. وطول نفسه في سوره وآياته. ينتقل من مقصد إلى مقصد، ويتنقل أنت معه بين هذه المقاصد، غير مستعين بوسائل العجز المذكورة، بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر، وحبك أن تنظر في المثال الأنف الذي قدمناه لك في سورة الفاتحة، وحبذا أن تنظر في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة، فإنك ستطرب وتعجب، وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر، وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد في بيان هذا اللون وأبدع، وأشبع العقول والقلوب وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين آحاد هذه السورة!

المخاطبة الخامسة:

براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء، ولكنها أمثلة تهديك، ونماذج تكفيك:

أ - منها: تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجه الآتية:

- ١ - الإتيان بصريح مادة الأمر، نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْتَنَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهِنَّ﴾^(١).
- ٢ - والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٢).
- ٣ - والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣).
- ٤ - والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٤) أي: مطلوب منهن أن يتربصن.
- ٥ - والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٥) أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم.
- ٦ - وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ﴾^(٦) أو بلام الأمر نحو: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٧).
- ٧ - والإخبار عن الفعل بأنه خير: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي نَقَلْ إِنْصَاحَ لَهُمْ خَيْرٌ﴾^(٨).
- ٨ - ووصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر، نحو: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آتَقَرَّ﴾^(٩).
- ٩ - ووصف الفعل بالفرضية، نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾^(١٠) أي من بذل المهور والنفقة.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٧) سورة الحج، الآية: ٢٩.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

(٩) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(١٠) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

١٠ - وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

١١ - وترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ مَا آسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ﴾ (٢).

١٢ - وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام نحو: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣) أي تذكروا.

١٣ - وإيقاع الفعل عقب ترج، نحو: ﴿وَلَمَّا كُمْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤).

١٤ - وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل، نحو: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٥).

ب - ومنها: تعبيره عن النهي بالوسائل الآتية:

١ - الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي، نحو: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وظنهموا على إخراجكم أن قولهم﴾ (٦).

٢ - والإتيان في جانبه بمادة التحريم نحو: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ (٧).

٣ - ونفي الحل عنه، نحو: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ (٨).

٤ - والنهي عنه بلفظ لا، نحو: ﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٩).

(١) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٦) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(٨) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

٥ - ووصفه بأنه ليس برأ، نحو: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ (١).

٦ - ووصفه بأنه شر، نحو: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ (٢).

٧ - وذكر الفعل مقروناً بالوعيد، نحو: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣) الخ.

٨ - وذكر الفعل منسوباً إليه الإثم، نحو: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِنَّمَعٌ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ (٤).

٩ - ١٥ ونظم الأمر في سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة، والإخبار عن الفعل بأنه رجز، ووصفه بأنه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه ورجاء الفلاح في تركه، وترتيب مضار مؤذية على فعله، والأمر بالانتهاء عنه في صورة الاستفهام، ونمثل لهذه الطرق كلها، بتحريم الخمر والميسر في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَقُّرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٦).

ج - ومنها تعبيره عن إباحة الفعل بالطرق الآتية:

١ - التصريح في جانبه بمادة الحل، نحو: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ (٦).

٢ - والأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب، نحو: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨١.

(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ - ٩١.

(٦) سورة المائدة، الآية: ١.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

- ٣ - ونفي الإثم عن الفعل، نحو: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(١).
- ٤ - ونفي الحرج عنه، نحو: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾^(٢). أي: في ترك القتال، أو في الأكل من البيوت^(٣).
- ٥ - ونفي الجناح عنه في غير ما ادعي فيه الحرمة، نحو: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٤)،^(٥) إلخ، أما ما ادعي فيه الحرمة فإن نفي الجناح عنه يصدق بوجوبه، نحو: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٦).
- ٦ - وإنكار تحريمه في صورة استفهام، نحو: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٧).
- ٧ - والامتنان بالشيء ووصفه بأنه رزق حسن، نحو: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٨).
- وهكذا تجد القرآن يفتن في أداء المعنى الواحد بالفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب ومضي وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام وامتنان، ووصف، ووعده ووعيد إلى غير ذلك.
- ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط، كثيراً ما تجده سريعاً لا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٦١، وسورة الفتح، الآية: ١٧.

(٣) تجد هذا النص الكريم في سورة الفتح عقب توعده من يتخلف عن القتال في قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ إلخ. ثم تجد هذا النص الكريم أيضاً في سورة النور نازلاً بسبب وهو أن المسلمين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنون أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يخرجون ويقولون: نخشى ألا تكون نفوسهم بذلك طيبة (م).

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٥) نزلت فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم، فقرر لهم أن ذلك كان مباحاً لهم (م).

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٨) سورة النحل، الآية: ٦٧.

يجارى في سرعته، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مكباً على وجهه، مضطرباً أو متعثراً، بل هو محتفظ دائماً بمكانته العليا من البلاغة، ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان، لباساً فضفاضاً من الجدة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يمل قارئه، ولا يسأم سامعه، مهما كثرت القراءة والسماع، بل يتقل كل منهما من لون إلى لون؛ كما يتقل الطائر في روضة غناء من فتن إلى فتن؛ ومن زهر إلى زهر.

واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو: كان فناً من فنون إعجازه الأسلوبية كما ترى، وكان في الوقت نفسه منة يمنها الله على الناس؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعاً؛ وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه، اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٢). وقوله سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٣) وقوله سبحانه في سورة الرعد: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤).

الخاصة السادسة:

جمع القرآن بين الإجمال والبيان، مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين^(٥)، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٥) المجمل ما له دلالة غير واضحة، فخرج المهمل والمبين. والمبين ما لا خفاء فيه لا ما وقع إليه السياق. مثال الأول لفظ القرء ولفظ مختار، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ لأن الأول متردد بين الحيز والطهر، والثاني بين الفاعل والمفعول والثالث مجهول معناه قبل نزول آية ﴿حرمت عليكم﴾. والمبين نحو ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا﴾ و﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾. (م).

انخرقت له العادة، فسمع الجملة منه وإذا هي بيّنة مجملة في آن واحد، أما أنها بيّنة أو مبيّنة - بتشديد الياء وفتحها - فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً، وكلما أمعنت فيها النظر زادت من المعارف والأسرار، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة، شقاء أنفسهم وعقولهم فيه، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفيّاض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به ولا كذلك البشر في كلامهم، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم، ضاقت ألفاظهم ونم تتسع لاستنباط وتأويل، وإذا قصدوا إلى إجمالها، لم يتضح ما أرادوه، وربما التحق عندئذٍ بالألغاز وما لا يفيد.

والأمر في هذه الخاصة ظاهر غني بظهوره عن التمثيل، وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير، ففيها من ذلك الشيء الكثير ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾^(١).

الخاصة السابعة:

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن، تجد بياناً قاصداً مقدرأ على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء، من الإسراف والتقتير، تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة، لا تنقص شيئاً يعتبر عنصراً أصلياً فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئاً يعتبر دخيلاً فيها وغريباً عنها، بل هو كما قال الله: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾^(٢).

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن، بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن، بل كل

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

منطوق بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان، تجده بين هاتين الغائيتين، كالزوج بين صرتين: بمقدار ما يرضي إحداها يغضب الأخرى، فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه، حمله ذلك في الغالب على أن يغض من شأن المعنى، فتجيء صورته ناقصة خفية، ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية، وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة، حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ، ركباً متن الإسهاب والإكثار، حرصاً على ألا يفوته شيء من المعنى الذي يقصده ولكن يتندر حيثنذر أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة في إسرافه وفضوله، تلك التخمة التي تذهب ببهائه ورونقه، وتجعل السامع يتعثر في ذيلوله، لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله.

وإذا افترضنا أن بليغاً كتب له التوفيق بين هاتين الغائيتين - وهما القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى - في جملة أو جملتين من كلامه، فإن الكلال والإعياء لا بد لاحقاً به في بقية هذا الكلام، ونذر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية، إلا في الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس في الحين بعد الحين، وهو يبحث في التراب أو يتقب بين الصخور.

وإن كنت في شك فساتل أئمة البيان وصيارفته: هل ظفرتهم بقطعة من النثر، أو بقصيدة من الشعر، كانت كلها أو أكثرها جامعاً بين وفاء المعنى وقصد اللفظ؟ ها هم أولاء يعلنون حكمهم صريحاً بأن أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة، والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا في أبيات معدودة من قصائد محدودة أما سائر شعرهم بعد، فبين متوسط ووديء، وها هم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه، على الناثرين من الخطباء والكتاب.

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة، فافتح المصحف الشريف مرة، واعمد إلى جملة من كتاب الله، وأحصها عدداً، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أي كلام آخر، وقارن بين الجملتين، ووازن بين الكلامين، وانظر أيهما أملاً بالمعاني مع القصد في الألفاظ؟ ثم انظر أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها في ذلك الكلام الإلهي؟ وكم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها في ذلك الكلام البشري؟ إنك إذا حاولت هذه المحاولة، فستتهي إلى هذه الحقيقة التي أعلنها ابن عطية فيما يحكي السبوطي عنه

وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول: لو نزعنا منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد أهر. وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا، حتى كلام رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وأشرق نفسه بنور النبوة والوحي، وصيغ على أكمل ما خلق الله، فإنه مع تحليقه في سماء البيان، وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن. وسبحان الله وبحمده سبحانه الله العظيم!

تعليق وتصييل

يحلو لي أن أسوق إليك هنا كلمة قيمة، فيها تعليق وتمثيل لما نحن بصدده، وهي لصديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» الذي اقتبسنا منه فيما يتصل بإعجاز القرآن كثيراً.

قلنا: إن القرآن الكريم يستمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ، في توليد أكثر ما يمكن من المعاني. أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازاً كله، لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى.

دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية: إنها مقمحة وفي بعض حروفه إنها زائدة زيادة معنوية، ودع عنك قول الذي يستخف كلمة التأكيد فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به، أجل؛ دع عنك هذا وذاك؛ فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها، إنما هو ضرب من الجهل - مستوراً أو مكشوفاً - بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن، وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون، ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه، ثم إياك أن تركز إلى راحة اليأس فتقعد

عن استجلاء تلك الأسرار قائلاً: أين أنا من فلان وفلان؛ كلا، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل، ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة^(١) فجد في الطلب ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢) فعسى الله أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عمي على غيرك والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولنضرب لك مثلاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣).

أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حيثئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه؛ أو على الأقل، محتملة لثبوته وانتفائه، لأن السالبة كما يقول علماء المنطق تصدق بعدم الموضوع، أو لأن النفي - كما يقول علماء النحو - قد يوجه^(٤) إلى المقيد وقيدته جميعاً. تقول: ليس لفلان ولد يعاونه، إذا لم يكن له ولد قط، أو كان له ولد لا يعاونه، وتقول: ليس محمد أخاً لعلي، إذا كان أخاً لغير علي أو لم يكن أخاً لأحد. وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً، لأن نفي مثل المثل يتبعه العقل نفي المثل أيضاً، وذلك أنه لو كان هناك مثل لله، لكان لهذا المثل مثل قطعاً وهو الإله الحق نفسه، فإن كل متمائلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبه، وإذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل، وهو المطلوب.

(١) قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾ الآية ٢٤ من سورة إبراهيم (١٤) وقال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنما لمثل المسلم. فحدثوني ما هي؟» فخفي على القوم علمها وجعلوا يذكرون أنواعاً من شجرة البادية وفيهم ابن عمر أنها النخلة وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سناً وفيهم أبو بكر وعمر. فقال ﷺ: «هي النخلة» الحديث رواه الشيخان. وفي القرآن: ﴿ففهمناها سليمان﴾ الآية ٧٩ من سورة الأنبياء (٢١) (م).

(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) لعل تمام الكلام: أو لأن النفي - كما يقول علماء النحو - قد يوجه إلى القيد وحده وقد يوجه المقيد وقيدته جميعاً إلخ (م).

وقضارى هذا التوجيه - لو تأملته - أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته، ولا يبين ميسر الحاجة إليه ألست ترى أن مؤدي الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً من التعمية والتعقيد وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول هذا أخو فلان، فقال: هذا ابن أخت خالة فلان؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد، ذلك الاسم الذي لا نعرف له مسمى هاهنا، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً البتة، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان.

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوة دلالاته، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه، ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلماً من الآخر:

الطريق الأول: وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: «ليس مثله شيء» لكان ذلك نفيًا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ إذ أن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذا لدب إلى النفس ديبب الوسوس والأوهام، أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو لنجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعمّا يشبه المماثلة وما يدنو منها، كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾^(١) نهياً عن يسير الأذى صريحاً، وعمّا فوق اليسير بطريق الأخرى.

الطريق الثاني: وهو أدق مسلماً: أن المقصود الأول من هذه الجملة - وهو نفي التشبيه - وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: «ليس كالله شيء» أو «ليس مثله شيء» لكن هذا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم، تريد في الوقت نفسه أن تلتفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت: فلان لا يكذب ولا يبخل أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها - فإذا زدت فيه كلمة فقلت: مثل فلان لا يكذب ولا يبخل، لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي؛ وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم.

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة الحكيمة قائلة: «مثله تعالى لا يكون له مثل»، تعني: أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنتين من جنسه؛ فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منها يؤدي معنى المماثلة ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً. فالتشبيه المدلول عليه بالكاف لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ: المثل المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع: لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله فكل براهينهم في الواحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية، حسب ما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١).

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه؛ ويقرر استحالة الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار، فكأننا بها نقول لنا:

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها، كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص. أما الكمال التام

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

المطلق الذي هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنيانية؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدماً على كل شيء وإنشاء لكل شيء ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، وحققت سلطاناً على كل شيء، وعلواً فوق كل شيء، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢). فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت، إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبقاً ومنشأ منشأ، ومستعلياً مستعلى عليه، أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما، إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً، فأنى يكون كل منهما إلهاً، وللإله المثل الأعلى؟!

أرأيت كم أفدنا من هذه الكاف: وجوهاً من المعاني كلها شاف كاف، فاحفظ هذا المثال، وتعرف به دقة الميزان الذي وضع عليه النظام الحكيم حرفاً حرفاً. اهـ. وهو كلام جد نفيس، فاحرص عليه.

الشبهات الواردة على أسلوب القرآن

تنمر أعداء الله على القرآن، وألقوا في طريق الإيمان به حبلاً وعصياً من التخيلات والأوهام، من ذلك شبهات لفقوها ووجهوها إلى أسلوبه، وهي مع التوائها وخبثها تراها مفضوحة منقوضة في هذا الكتاب، (بالجزء الأول، من ص ٧٢ - ٧٤ ومن صفحة ١٩٩ - ٢٣٢ بالطبعة الثانية) فارجع إلى ذلك هناك، والله يتولى بتوفيقه هدانا وهداك وهو حينا ونعم الوكيل.

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٢.